

مقارنة بين حسن بن ثابت الأنصاري و الخاقاني الشرواني في المدائح النبوية

تورج زيني وند^١

تاريخ الوصول: ١٤٢٨/٨/١١

تاريخ القبول: ١٤٢٨/١٢/٤

حينما جاء فجر الإسلام و شرع الناس يدخلون في دين الله أفواجا، ضَعُفَ الشعر العربي شيئا فشيئا، بسبب انشغال الناس بالمفاهيم القرآنية. ثم تطوّرت الأحداث في ذاك الزمن و أخذ بعض الشعراء المشركين يوجهون سهام أشعارهم إلى النبي (ص) و أصحابه، و سرعان ما قام شعراء آخرون من المسلمين، أمام تلك الأفواه المنحرفة و نظموا كثيراً من الأشعار في هجو هؤلاء و في الدفاع عن النبي (ص) و الدين الجديد .

و لما استأثر الله - سبحانه و تعالى - نبيه المكرّم إلى جوار رحمته، لم تخمد أضواء هذا الشعر، بل جرى على لسان الشعراء الملتزمين بحيث صار غرضاً يزدهر مع الأيام حتّى سَمِيَ بالمدائح النبوية.

أمّا هذه الدراسة فقد ارتكزت على المضامين و الأساليب الشعرية في المدائح النبوية لدى شاعرين كبيرين، في الأديين العربي و الفارسي، هما: حسن بن ثابت الأنصاري (شاعر الرسول) و الخاقاني الشرواني (حسن العجم) .

الكلمات الرئيسية: المدائح النبوية، حسن بن ثابت الأنصاري، الخاقاني الشرواني

١. الاستاذ المساعد في فرع اللغة العربية و آدابها بجامعة كرمانشاه

١- مقدمة

المدح لغة هو حسن الثناء (ابن منظور، ١٩٩٨ م، مادة «مدح»). وفي اصطلاح أهل الأدب هو فنّ من فنون الأدب لاسيما في الشعر، وقد راج في كثير من العصور القديمة و بخاصة قبل أن يهتدي الشاعر أو الكاتب إلى فهم حقيقة رسالته في المجتمع، فكان ييذل ماء وجهه على أبواب المتنفذين في سبيل التكسب (أنظر: عبدالنور، ١٩٧٩ م: ٢٤٥، وأيضا: ابن رشيق القيرواني، ١٩٩٨، ٢: ٢٧٦). أمّا المديح النبوي، الذي يعدّ نوعاً قيماً من أنواع المدح، فهو لون من التعبير عن العواطف الدينيّة و باب من الأدب الرفيع، لأنّه لا يصدر إلّا عن قلوب مفعمة بالإيمان، مليئة بالإعجاب بشخصية الرسول الكريم(ص) (أنظر: الرّيداوي، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م: ١٠٧).

و لقد عُرف هذا الفنّ منذ بُعث الرسول لأمة العرب هادياً ونذيراً و عرفه الشعراء في صدر الإسلام و في العصور الّتي تلتها، حتّى برز شيئاً فشيئاً فنّ من فنون الشعر الذي نما على يد المتصوّفين من الشعراء خاصّة (أنظر: پاشا، ١٩٩٩ م: ٦٤٦).

إنّ أوّل قصيدة كانت ذات تأثير كبير علي الشعراء في العصور التالية، هي بردة «كعب بن زهير» (؟- ٦٢٢ م). ومطلعها؛

بَانتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ

مَتَّيْمٌ إِنْ هَـرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ

(التبريزي، ١٩٧١ م: ١١)

و هكذا توالى الشعراء ينظمون المدائح النبويّة الّتي بدأها أمثال كعب بن زهير و عبدالله بن رواحة و حسن بن ثابت الأنصاري (؟- ٦٧٤ م/ ٥٤ هـ) ثمّ أكملها «شرف الدّين البوصيري» (١٢١٢-١٢٩٦ م/ ٦٠٨-

٦٩٦ هـ)، و أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢ م/ ١٢٥٨-١٣٥١ هـ) و الآخرون.

وسنبحث في هذه المقالة- الّتي تعدّ في حقل الأدب المقارن- المدائح النبويّة عند حسن بن ثابت الأنصاري شاعر الرسول (ص)، و الخاقاني الشرواني (٥٢٠-٥٩٥ هـ - ق) الذي سمّي في الشعر الفارسيّ بـ «حسن العجم» بسبب مدائحه النبويّة القيّمة، متأمّلين في المضامين و الأساليب الشعرية لديهما، متبيّنين مكانتهما في هذا الشعر الملتزم.

٢- المدائح النبويّة في شعر حسن بن ثابت الأنصاري و الخاقاني الشرواني:

٢-١- المدائح النبويّة في شعر حسن بن ثابت الأنصاري:

منذ انبثاق الرّسالة المحمّديّة و بزوغ فجر الإسلام، لعب الشعر و الأدب دوراً حيويّاً في استنهاض الأمة و كان الشاعر آنذاك بمثابة الإذاعة أو الصّحيفة. و من أشهر هؤلاء الشعراء حسن بن ثابت الأنصاري الذي يكنى «أبا الحسام» لمنازلته عن الرسول(ص)، و كان أبوه «ثابت بن المنذر حرام» من سادة قومه و أشرافهم. أقبل حسن على الرسول و أسلم مع سائر النّاس الّذين تهافتوا عليه مبايعين و مؤمنين بالدّين الجديد و قام بين يدي الرسول معلناً إيمانه بالله و رسوله، حيث قال:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا

رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِنْ عُلُ

(حسن بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ٣٧٢)

فقال الرسول (ص): «أنا أشهد معك» (أنظر: الأصفهاني، ٢٠٠٠ م، ٤: ١٣٣- ١٧٠ و أيضاً: الجمحي، بدون تاريخ، ١: ٢١٧). ثمّ دافع حسن عن

بن الحارث» و «عمرو بن العاص» و «ضرار بن الخطاب الفهري» و «أبى عزّة الجمحي» و «هيرة بن أبى وهب المخزومي». فانتصر شعره في ميدان القتال وكافح جنباً إلى جنب مع السيف و الدرع، رغم أنه كان يعدّ شاعراً خمرياً و قبلتاً قبل دخوله الإسلام يمدح الغساسنة و المناذرة (المصدر السابق، ١٨٣).

أما القصائد التي خصّها بمدح النبى (ص) فهي: القصيدة الأولى؛ قالها في مدح المصطفى (ص) و ذلك قبل فتح مكة، هاجياً فيها أباسفيان بن الحارث و يصل عدد أبياتها إلى اثنين و ثلاثين بيتاً من البحر الوافر بهذا المطلع:

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ

إلى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءُ

(حسان ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ٥٤)

القصيدة الثانية؛ أنشدها في مدح النبي (ص) و يصل عدد أبياتها إلى أربعة عشر بيتاً من البحر الكامل. مطلعها هكذا:

هَلْ رَسُمُ دَارِسَةِ الْمُقَامِ، يَبَابِ

مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بِجَوَابِ

(المصدر السابق، ٦٤)

القصيدة الثالثة؛ قالها في مدح النبي (ص) و يبلغ عدد أبياتها ستة عشر بيتاً من البحر الوافر:

عَرَفْتُ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكَثِيبِ

كَخَطِّ الْوَحْشِيِّ فِي الرَّقِّ الْقَشِيبِ

(المصدر السابق، ٦٧)

القصيدة الرابعة؛ في تسعة أبيات من البحر الطويل:

أَغْرُ، عَلَيْهِ لِلنَّبِيِّ حَاسَاتٌ

مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلَوِّحُ وَ يُشْهَدُ

(المصدر السابق، ١٣١)

الإسلام بكلّ ما أوتى من شاعرية و لسان و ظفه في خدمة الرسول حتّى صار من المقرّبين لدى الرسول، فأقامه وزير دعايته و محامي دعوته و شاعر رسالته ينافح عنه و عن الإسلام و المسلمين بشعر كان له وقع السهام و نفح الثّبال. و الحقّ أنّ حسان كان آية من الآيات التي أيّد الله بها رسوله (ص) (أنظر: عيسى، ١٩٩٠: ٣٥٠).

وقد كان المشركون أهل لسن و فخرو هجاء و قد حاربوا الرسول بهذا السلاح، فكان لا بدّ له أن يعدّ لهم شاعراً سليط اللسان قويّ البيان، و الأنصار قد نصروا رسول الله بسيوفهم، فهم أجدر أن ينصروه بألسنتهم. و يبدو أنّ حسان بن ثابت، كان أوّل شاعر أجاب هذه الدعوة عندما خاطبهم النبي (ص): «ما منع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟». فقال حسان: «أنا لها» و أخذ بطرف لسانه و قال: «الله ما يسرّني به مقول بين بصرى و صنعاء». فقال: «كيف تمحوهم و أنا منهم؟»، فقال «إني أسألك منهم كما تُسلّ الشّعرة من العجين» (الأصفهاني، ٢٠٠٠ م، ٤: ١٣٧-١٣٨).

فقدّمه الرسول (ص) على غيره من الشعراء و انتدبه لهجاء المشركين و الدّود عن أعراض المسلمين و أقام له منبراً في مسجده ينشد عليه الشعر. فقد دعا الرسول مراراً له أن يؤيّد الله بروح القدس و حسان قائلاً: «فذاك حسان و شعره يا رسول الله» (المصدر السابق، ٤: ١٤٣)، ثمّ ينطلق منافحاً عن الإسلام بقلب مليء بالإيمان، و لسان لو وضعه على حجر، لفلقه أو على شعر، لخلقه. يتابع الرسول شعر حسان و يتأمّله فيسرّ به و بحثّ على قول مثل هذا الشعر الذي يعزّز الدّين و الأخلاق و يقف في وجه الوثنيّة و القبليّة و العبوديّة و الطبقية (نور الدّين، ٢٠٠٠ م: ١٨٧). و لأجل هذا جرّد شاعرنا سيف شعره و كان بالمرصاد لتلك الأفواه المنحرفة كـ «عبد الله بن الزبعرى» و «أبي سفيان

القصيدة الخامسة؛ قالها في مدح النبي(ص) و أصحابه يوم بدر في تسعة أبيات من البحر البسيط:

مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ الْمَآذِي يَقْدُمُهُمْ

جَلْدُ التَّحِيْزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رَغْدِيدٍ

(المصدر السابق، ١٣٣)

القصيدة السادسة؛ يمدح فيها النبي(ص) في ستة أبيات من البحر الكامل:

وَ اللَّهِ رَبِّي لَا تُفَارِقُ مَا جَدًّا

عَفَّ الْخَلِيقَةَ، مَا جَدَّ الْأَجْدَادِ

(المصدر السابق، ١٣٤)

القصيدة السابعة؛ في رثاء النبي(ص) و مدحه في خمسة و أربعين بيتاً من البحر الطويل :

بِطَبِيْهِ رَسْمٌ لِلرُّسُولِ وَمَعْهَدٌ

مُنِيرٌ، وَقَدْ تَغْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ

(المصدر السابق، ١٤٢)

القصيدة الثامنة؛ أيضاً في رثاء النبي(ص) و مدحه في ثمانية عشرة بيتاً من البحر الكامل:

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا

كُحِلَتْ مَا فِیْهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ

(المصدر السابق، ١٥٠)

القصيدة التاسعة؛ أنشدتها في مدح الرسول(ص) و أصحابه في ثلاثة و عشرين بيتاً من البحر البسيط:

إِنَّ الدَّوَابَّ مِنْ فَهْرٍ وَ إِخْوَتَهُمْ

قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ

(المصدر السابق، ٣٠١)

و يبدو أن أكثر ظاهرة في هذه القصائد هي دعوته إلى التوحيد أو التعمق في الحياة و الكون أو شعائر الإسلام و مدح الرسول وأصحابه. إن شاعرنا في هذه القصائد لا يلتزم مذاهب و اتجاهات غيره من الشعراء

كالتأبغة الذبياني (؟ - ٦٠٤ م) و الخطيئة (؟) - ٦٧٩م/٥٩ هـ) و لم يعمد إلى التكلف في شعره بل يرسله كما أوحى به القريحة، ولكن كثيراً ما اضطرت له المواقف الإسلامية إلى الإرتجال. فلهذا يرى بعض النقاد أن شعره في الإسلام لا يصل إلى مقام شعره في الجاهلية. يقول صاحب طبقات فحول الشعراء في ردّ هذا الرأي: «قد حُمل عليه ما لم يُحمل على أحد» (الجمحي، بدون تاريخ، ١: ١٧٩)، كما يشير إلى هذا الأمر، عبد الملك بن قريب الأصمعي حيث يقول: «تُنسب إليه أشياء لا تصح عنه». (ضيف، ١٩٦٣ م: ٧٩، نقله عن الاستيعاب: ١٣٠).

مهما يكن من الأمر، فصحيح أن الشعراء الذين نبتوا في الجاهلية وعاشوا في صدر الإسلام لا يصل شعرهم إلى ذروة ما أنشدوا في الجاهلية، أما إذا تأملنا في بواعث هذا الأمر فلناحظ أنهم تأثروا تأثراً جلياً بالمعارف الإسلامية و القرآنية، بحيث يمكن لنا أن نلمس في شعرهم روحاً جديدة و سمة من الإيمان العميق، متخلفين بذلك عن الأسلوب الذي تعودوا أن يلتزموه في الجاهلية، و من هنا جاء شعرهم أغزرمعنى، لكنه أقل أسلوباً (ضيف، بدون تاريخ: ٣٠). إضافة إلى ذلك، لو أن شعر حسان كان ضعيفاً أو غثاً بارداً، فلماذا يتأمل الرسول في شعره و يحثه على الشعر و يسأل الله مراراً أن يويده بروح القدس و يرى تأثير شعره على المشركين كوقع السهام عليهم؟!.

بعد هذا، أورد بعض النقاد على حسان بأنه ظلّ مع رفاقه من شعراء النبي(ص)، جاهليّ الصّور و الصياغة و قلّما استمدّوا من شخصيّة النبي معان جديدة؛ كالإنسانية و الأبوة و الرّحمة و العفو و السّماحة و سموّ الفكر والتّجرد و الإنقاذ و الدّعوة إلى السّلم و المساواة

الفاظه، جدید فی نفحته الدینیة، بید آئه لا تعدو الفطرة الجاهلیة و لكنّها فطرة جلاها الدین وصلّها الايمان (أنظر: البستاني، ۱۹۸۹ م: ۱: ۲۷۸). ودالیتة المشهورة هـی شعر محکم یؤید هذا الرأی حیث یقول:

أَغْرُ عَلَیْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ

مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلَوِّحُ وَيُشْهَدُ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۳۱)
فنجذ هذه القصيدة، غنية بالتعاليم والقيم الإسلامية، و فيها تأثر شديد بالقرآن الكريم وإشادة بالنبي (ص) و بدوره و جهاده، و إقرار مطلق بنبوته و بالخالق الواحد، كماهي ردّ قاطع على أولئك الذين يدعون خلوه شعر حسن الإسلامی من التعاليم الإسلامية. فهذه القصيدة تشتمل على النظام العقيدي الإسلامي و على بعض جوانب النظام التشريعي. وكذلك صرح بهذه المسألة صاحب «موسوعة أمراء الشعر العربي من الجاهلية إلى العصر العباسي» (نور الدين، ۲۰۰۰ م: ۱۹۸). و من هذا المنطلق، نتأمل في ديوانه الذي يكون أحسن مصدر لتعريف شعره، و هو مليء بهذه التماذج. فمنها هذه الأبيات التي يتحدث فيها عن اتصاف النبي (ص) بصفات، كالتقي و قول الحق و البشير و النذير و الداعي إلى الله؛

أَعْنِي الرُّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ

عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وَ بِالْجُودِ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۳۳)
وَ قَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا
يَقُولُ الْحَقُّ إِنَّ نَفْعَ الْبَلَاءِ
(المصدر السابق، ۵۹)
مُتَكْرَمًا يَدْعُو إِلَى رَبِّ الْعُلَى
بَذَلِ التَّصْنِيعَةِ رَافِعَ الْأَعْمَادِ
(المصدر السابق، ۱۳۴)

بين البشر و...، بل ظلّوا يصفون شخصية النبي (ص) كزعيم أو سيد قبلي فهو؛ بطل، كريم، مشرق الوجه، وضاح الحسن، رفيع العماد، طويل التجاد، كثير الرماد، إذا ما شتا تماماً كصخر الخنساء أو من شابه صخرًا في نخوته و كرمه و بطولته و مثالها من الصفات المعروفة التي لم تكن شيئاً مذكوراً أمام صفات النبي (ص) و شمائله الربانية و خلقه العظيم وشيمته الإنسانية الفذة (شرف الدين، ۱۹۹۷ م: ۷۱). و يكمل مؤلف «المدائح النبوية» هذا الكلام حيث يقول: «لا يمكن، أن نعتبر أشعار حسن في مدح النبي (ص) كقسم من المدائح النبوية لأنه مدح النبي بالمضامين و الأساليب الجاهلية» (مبارك، ۱۹۷۶ م: ۶۹).

هذا النقد، صحيح على شعر حسن؛ أليست تراه وهو يقول في مدح النبي (ص) كما قالت الخنساء في رثاء صخر:

طَوِيلُ التَّجَادِ رَفِيعُ الْعِمَادِ

مُضَاصُّ النَّجَارِ مِنَ الْخَزَرَجِ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۲۴)
و الأمثلة كثيرة في هذا الباب، و لكن هذا لا يعني أن أسلوبه يتخلّى تماماً عن الروح الإسلامية كما صرح به هؤلاء، بل هذا مؤلف «أدباء العرب» يردّ على هذا الرأي ردّاً صارماً و يعتقد بأن أسلوب شاعرنا، هو غير الأسلوب الذي عهدناه في الجاهلية، فهو لا يشبه محمداً بالأسد كما فعل كعب بن زهير، و لا يمتنع في وصف جوده و سخائه كما يريد الإستجداء و التّكسّب من ممدوحه، بل يعني بوصف شمائله العر و يبيح في ذكر الرسالة و التصديق بها و يذكر ما حمل الإسلام للعرب من نور و هداية و أمل بعد يأس، و يعرض أحياناً عن أنكر النبوة و كذب بها. فهو مدح جديد في نوعه و طريقته، جديد في تعابيره و

و إن قلنا بأن الشعراء في صدر الإسلام قد توجَّهوا إلى مديح الاسلام المشتمل في شخص الرسول(ص) و في أصحابه المخلصين الكرام، فلماذا يخلو شعر حسن من مدح علي (ع) و هو سيف الله و رسوله؟! و حتَّى حين قتل عثمان، يشير إلى بني هاشم و الإمام علي (ع) خاصَّة، هكذا؛
يَا لَيْتَ شِعْرِي، وَلَيْتَ الطَّيْرُ تُخْبِرُنِي

مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَابْنِ عَفَانَا

(المصدر السابق، ٤٦٣)

فنجده هنا يعارض أمير المؤمنين (ع) بعداوته و يرميه بمعاريض القول في أشعاره و لذا يبدو أنه خاصَّة في أواخر حياته، يقدِّم رجلاً في الإيمان و يؤخِّر أخري في الضلال و التفاق. أليس هذا حسن ينشد قصيدته في قضية «غدير خم»، بالمطلع التَّالي؛
يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيُّهُمْ

بُحْمٌ وَأُسْمَعُ بِالرَّسُولِ مُنَادِيًا

(المفيد، بدون تاريخ: ١٥٨)

أهو كان انتهازياً أم لا ؟! و لو كان هكذا، فما أدقَّ قول النبي(ص) المقيّد بـ «ما» المصدرية الظرفية، فيه؛ «مازلت فينا». ولعلَّ هذه المسألة ممَّا قد وُضعت عليه (أنظر: ضيف، ١٩٦٣ م: ٨٠).

٢-٢- المدائح النبوية في شعر الخاقاني

الشرواني

ليست المدائح النبوية مقصورة على العرب و الشعراء العرب، بل هناك آخرون من أبناء الفرس أحسَّوا بأهمية هذا الفنّ، فسخرّوا قلمهم و لسانهم في سبيل الدّود و الدفاع عن الرسول(ص) و مدحه. ومن جملة هؤلاء الذين عرفوا بمدح النبيّ (ص) في الشعر الفارسيّ «حسن العجم» أفضل الدّين بديل بن عليّ نجار الخاقاني الشرواني (٥٢٠-

٥٩٥ هـ. ق). ولد «أفضل الدّين» هذا، في بيت فقير، كان أبوه نجاراً حاذقاً وأمّه كانت على دين المسيح (ع) قبل أن تؤمن بالإسلام، فترعرع في مدرسة عمّه، «كافى الدّين عمر بن عثمان» الذي كان طبيباً حاذقاً و فيلسوفاً شهيراً. فتبوأ عنده منزلة رفيعة في الشّعروالثر. و قد كان إلى جانب ذلك صاحب عزّة رفيعة و مزايا إنسانيّة رائعة و إن كان قد خضع للحكام فترة من عمره لمعاناته البؤس و الحرمان، طالباً التّعمة و الرّخاء.

اقتحم شعره أرجاء الممالك الإسلامية فأقبل على الملوك و الأمراء من «السّلاجقة» و «الخوارزميين» و الحكام الآخرين، طالباً حياة مترفة، و لكن من خلال السّنوات التي حجّ فيها بيت الله الحرام و زار المدينة المنورة، أخذ يكتسب المعرفة القلبية كما اكتسب شعره الرّقة التعبيريّة. فبدأ شاعرنا يترك القصور و ينصب نفسه لمدح النبي(ص) و ما إلى ذلك مما ينبثق عن العاطفة الصادقة و العقيدة الصافية. و لقد حقّ بعد ذلك أن يقال أنّه هو «حسن العجم»، (أنظر: صفا، ١٣٧٣ هـ. ش، ٢: ٧٧٦ وأيضاً: فروزانفر، ١٣٦٩ هـ. ش: ٦١٢). و سمّاه، عمّه بهذا اللّقب من قبل، حيث يقول :

چون دید که در سخن تمامم

حسن عجم نهاد نامم

(خاقاني شرواني، ١٣٣٣ هـ. ش: ٢٢١)

وحتّي يدّعى - مثل البوصيري - بأنّ بعض الصّديقين رأوا النبيّ (ص) في المنام محتفياً بالخاقاني و معاتباً حسّاده:

اندرين هفته، هشت، نه صديق

مصطفی را به خواب دیدستند

کآمد و التفات کرد به من

زان، مرا چاه و آب دیدستند

زده در پيشش مصطفی خيمه؛

دست من در طناب دیدستند

مصطفی را، زرنج خاطر من

بابدان در عتاب دیدستند

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ ه. ش، ۲: ۱۱۶۵)

و ممالاریب فيه أن الخاقاني الشرواني يعدّ شاعراً
فحلاً، في القصيدة الفارسية، فهو يملك عنان الكلمات و
العبارات، تميل معه حيث مال، ويطيعه الكلام إذا قال،
بحيث تأثر به كثير من الشعراء و اتبعوا منهجه كما أنه تأثر
بأشعار حسّان، شاعر الرسول (ص)، و سلك مسلكه، في
هذا الباب؛

چون ز راه مکّه خاقانی به یثرب داد روی

پیش صدر مصطفی، ثانی حسّان دیده اند

(المصدر السابق، ۱: ۱۷۵)

مصطفی حاضر و حسّان عجم مدحسرای

پیش سیمرخ خمش، طوطی گویا بیند

(المصدر السابق، ۱: ۲۰۷)

چون به در مصطفی نایب حسّان تویی

فرض بود نعت او حرز أمم ساختن

(المصدر السابق، ۱: ۴۷۱)

لکنّه کان یجد نفسه أعلى من حسّان شأناً في مقام
الفخر:

رشد نظم من خورد حسّان ثابت را جگر

دست نثر من زند سبحان وایل را قفا

(المصدر السابق، ۱: ۳۲)

گر زین سخنان سحر کردار

حسّان عرب شدی خبردار

بانگش زندی ز عالم پاک

یا حسّان العجم فدیناک

(خاقانی شروانی، ۱۳۳۳ ه. ش، ۷۷)

أما المدائح النبوية التي نجدها في شعر حسّان
العجم فهي مقصورة على النبي (ص) أو مدح
كبار الصحابة أو الذين أبلوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً
حسناً، و قليلاً ما يمزجها بمدح أهل البيت (ع)، إذ أنه كان
شافعيّاً (أنظر: فروزانفر، ۱۳۶۹ ه. ش، ۶۲۲).

هذه المدائح تختلف عن المدح التكمسيّ بخروجها عن
التقلّب على معاني العطاء و الجود و الإنطاء على وصف
الخصال الحميدة و رسالة نبينا (ص) و ما إلى ذلك مما
يصدر عن العاطفة الحقّة الصادقة و لا تخلو على كلّ حال
من الشّعف و الهيجان.

هذه القصائد التي تدلّ على عواطفه الصادقة، هي
قصائد في التوحيد و الموعظة و مدح النبي (ص) أو
تقارير في رحلاته عن الحجّ. إنّه قد أجاد فيها بوصف
البادية و حركة القوافل و مناسك الحجّ و الكعبة و عرفات
و مني و الروضة النبوية المقدّسة، بحيث يذوب القارئ
فيها ذوباً فكأنّه يحجّ و يزور مع الشاعر.

يعتبر الخاقاني الشرواني من الشعراء البارزين في فنّ
المدائح النبوية و تغلب على جميع أشعاره جزالة اللفظ و
فخامة التعبير و المعنى و كثرة ما يتصل ببيئته من التعقيد و
التصوير و قليلاً ما يميل إلى اللين و عذوبة اللفظ و سهولة
الغرض خلافاً لما نراه عند حسّان العرب.

و يبدو أنّ المضامين التي أتى بها شاعرنا و أبدع و
ابتكر فيها، تعدّ من أروع ما قيل في الشعر العربيّ و
الفارسيّ؛ لأنّ هذه القصائد ناتجة عن الاعتقاد و الحبّ و
قد أحسّ فيها حسّاً شديداً العاطفة. و من الواضح أنّه
تمسّك فيها بعدد من المقومات الفنية. فمنها؛ الاقتباس من

١٣٦٧ هـ. ش: ٩ وأيضاً؛ كزاري، ١٣٧٢ هـ. ش: (٢٠١).

أما القصائد التي يختصّها بمدح النبي (ص) فهي:
القصيدة الأولى؛ في التوحيد و الموعظة و مدح خاتم
النبيين (ص) و يصل عدد أبياتها إلى ثلاثة و ثلاثين بيتاً من
البحر الرّمل. مطلعها:

جوشن صورت برون کن در صف مردان درآ
دل طلب دارکز دارِ مُلکِ دل، توان شد پادشا
(حقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ. ش، ١: ٨)
القصيدة الثانية؛ في الموعظة والحكمة و وصف
المعراج و يبلغ عدد أبياتها ستة و ستين بيتاً من البحر
المضارع بهذا المطلع؛

اي پنج نوبه كوفته دردار ملك «لا»
«لا» در چهار بالش وحدت كشد تو را
(المصدر السابق، ١: ١١)
القصيدة الثالثة؛ في نعت النبي (ص) و الحكمة و
الموعظة التي يبلغ عدد أبياتها واحداً و تسعين بيتاً من البحر
الهمزج. مطلعها:

عروس عافيت آنگونه قبول كرد مرا
كه عمر بيش بمادامش به شيرها
(المصدر السابق، ١: ١٦)
القصيدة الرابعة؛ في مدح خاتم النبيين و في
الحكمة و الموعظة و التجريد و في ثلاثة و سبعين بيتاً
من البحر الهمزج أيضاً، و مطلعها:

سرير فقر تو را سر كشيد به تاج رضا
تو سر به جيب هوس در كشیده اينت خطا
(المصدر السابق، ١: ٢٢)

القرآن الكريم و الأحاديث النبوية، و منها استعمال
الإصطلاحات العلمية ثم تمتعه بالثقافة المسيحية و التركية
(أنظر: صفا، ١٣٧٣ هـ. ش، ٢: ٧٧٦).

و يبدو أنّ شخصية الحقاني و مواهبه الشعرية تكاد
أن تكون منقطعة التطير في تاريخ الشعر الفارسي،
فقد امتلك شخصية متشعبة، اصطبغت بأصول مختلفه تمده؛
أولاً؛ أنّه كان يعيش في مجتمع غلب عليه الأدب
العربي، ثانياً؛ امتزجت في دمه ثلاثة عناصر هي
الفارسية و التركية و العنصر المسيحي.

ثالثاً؛ أنّ أسفاره إلى مكة و المدينة و العراق كمراكز
الدين و الأدب قد أرشدته إلى الزهد و التصوّف و فتحت
أمامه عوالم جديدة.

رابعاً؛ موهبته الشخصية التي ترعرعت في مدرسة
عمه، كافى الدين عمر بن عثمان، ازدهرت و صارت
موهبة قوية غنية.

خامساً؛ أنّه تمتّع بأدب غني خصب مثل الأدب
الفارسي الذي أثّره شعراء مثل الرودكي، و
الفردوسي و السنائي الغزنوي.

سادساً؛ هو يشعر بالعزة و المنعة و الشرف التي لا
نظير لها في كلا الأديين؛ إنّ مثل بقية شعراء القرن
السادس؛ يفتخر بنفسه و نراه في هذا المضار يجري على
عادة أبي الطيّب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤ هـ. ق)
(فاضلي، ١٣٧٨ هـ. ش، ٤٠٧، وأيضاً: زيني وند، ١٣٨١ هـ. ش).
لأنّ نفسيته القويّة و قدرته على قرص الشعر و
شعوره بالقناعة و العزة جعلته يميل إلى هذا الغرض. أما
في القصائد التي أنشدها في التوحيد و مدح النبي
(ص) - و تكون تلك القصائد أطول مدائح - فلا
يتحدّث فيها عن تلك الشخصية المتكبّرة بل يتواضع أمام
الدين كنواضع المريض أمام الطيّب (أنظر: اردلان جوان،

القصيدة الخامسة؛ في مدح النبي الأكرم و في الحكمة والموعظة، يتراوح عدد أبياتها أربعة وخمسين بيتاً من البحر المضارع. مطلعها :

طفلى هنوز، بسته گهواره فنا

مرد، آن زمان شوی که شوی از همه جدا

(المصدر السابق، ۱: ۲۸)

القصيدة السادسة؛ هي التي سُميت بـ «حرز الحجاز». أنشأها في الكعبة و أنشدها في الروضة النبوية المنورة. و يتراوح عدد أبياتها واحداً وتسعين بيتاً من البحر الرَّمَل. مطلعها:

شبروان چون رخ صبح آینه سیما بینند

کعبه را چهره در آن آینه پیدا بینند

(المصدر السابق، ۱: ۲۰۰)

القصيدة السابعة؛ هي التي سُميت بـ «كثر الركاز» و شأها كشأن «حرز الحجاز». يصل عدد أبياتها إلى خمسة و سبعين بيتاً من البحر الرَّمَل، مطلعها :

مقصد اینجا ست نداي طلب اینجا شنوید

بختیان را ز جرس، صبحدم، آوا شنوند

(المصدر السابق، ۱: ۲۰۸)

القصيدة الثامنة؛ هي التي يبلغ عدد أبياتها مائة وثلاثة أبيات، و سُميت بـ «تحفة الحرمين» أو «تفاحة الثقلين» من بحر الرَّمَل، مطلعها :

صبح خیزان بین به صدر کعبه، مهمان آمده

جان عالم دیده و در عالم جان آمده

(المصدر السابق، ۱: ۵۵۷)

القصيدة التاسعة؛ هي قصيدة «منطق الطير» في مطلعين؛ المطلع الأول في وصف الصبح و نعت الكعبة، و المطلع الثاني في وصف الربيع و نعت النبي (ص). و يصل عدد أبياتها إلى ستة و ستين بيتاً من البحر المنسرح. و مطلعها الثاني:

رخش بهراً بتافت بر سر صفر آفتاب

رفت به چرب آخوری، گنج روان در رکاب

(المصدر السابق، ۱: ۶۳۰)

القصيدة العاشرة؛ سَمّاها بتحفة العراقيين و قالها في

خطابه إلى النبي (ص) حيث يبلغ عدد أبياتها سبعة و

سبعين بيتاً من البحر المضارع قائلاً :

ای قابل وحی و قالب حلم

ای عامل عدل و عالم علم

(خاقانی شروانی، ۱۳۳۳ هـ. ش: ۱۵۳)

۳- مضامين المدائح النبوية في شعر حسن العرب و حسن العجم:

جاءت مضامين المدائح النبوية عندهما متنوعة؛ فأحياناً يعتمدان على ذكر سيرته وأحياناً يؤكدان على شرح فضائله و عدّ شمائله و سرد ماكان في رسالته من المحاسن و المكارم. و سأشير إلى بعض هذه المضامين المشتركة أوالمضامين التي انفرد بها بعضهما، و جدير بالذكر أنّ المعاني التي استعملت في مدائحهما، معظمها مستمدة من القرآن الكريم و الحديث الشريف و السيرة النبوية ؛

۳-۱) في التحذير عن هوي النفس:

حسن: وَاللّٰهُ رَبِّيْ لَا تُفَارِقْ أَمْرَهُ

مَاكَانَ عَيْشٌ يُرْتَجَىٰ لِمَعَادٍ

(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۵۳)

الخاقانی:

شاخ امل بز، که چراغی است زود میر

بیخ هوس بکن، که درختی است کم بقا

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش: ۱: ۱۳)

۳-۲) في مدح الرسول (ص) :

حسن: وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرْقُطْ عَيْنِي
وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النَّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّراً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ
كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۶۳)

الخاقاني :

نطقش معلمی که کند عقل را ادب
خلقش مفرّحی که دهد روح را شفا
(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۱۴)

۳-۵) في التوسّل و التشفّع :

حسن: مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَه
و فِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَ أَجْهَدُ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۵۰)

الخاقاني:

ای شفیع صد هزار امت چو خاقانی به حشر
بنده مرتد بود، بر دست تو ایمان تازه کرد
(خاقانی شروانی ۱۳۷۵ هـ. ش، ۲: ۱۱۴۸)

۳-۳) في التحدّث عن سيرته (ص) :

حسن: عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ، لَا يُنَنِّي جَنَاحَهُ
إِلَى كَنَفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهِدُ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۲۹)

الخاقاني:

احمد مرسل که کرد از تپش و زخم تیغ
تخت سلاطین زگال، گرده شیران کباب
(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۶۷)

۳-۶) في المناجاة و التضرّع :

حسن: يَا رَبِّ فَأَجْمَعْنَا مَعًا وَ نَبِيَّنَا،
فِي جَنَّةٍ تُنَنِّي عُيُونَ الْحَسَدِ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۳۴)

الخاقاني:

مرا به منزل «الَّذِينَ» فرود آور
فروگشای ز من طمطراق «الشّعراء»
(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۲۹)

۳-۴) في توصيف القرآن الكريم:

حسن: يَتَلَوُ عَلَيْنَا التَّوْرَ فِيهَا مُحْكَمًا
قِسْمًا لَعَمْرُكَ لَيْسَ كَالْأَفْسَامِ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۴۴۲)

الخاقاني:

در سیاهی سنگ کعبه، روشنایی بین چنانک
نور معنی در سیاهی حرف قرآن آمده
(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۵۶۱)

۳-۷) في ذكر فضائله بالنسبة إلى الأنبياء الآخرين :

حسن: أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتَمٌ
مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلَوِّحُ وَ يُشْهَدُ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۲۳۴)

الخاقاني:

جمع رُسل بردرش مُفلسِ طالبِ زکاة
او شده تاجِ رُسل؛ تاجرِ صاحبِ نصاب
(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۶۷)

۳-۸) فی التحدّث عن جهاد رسول الله (ص):

حسّان:

مَاضٍ عَلَى الْهَوْلِ رَكَّابٌ لَمَّا قَطَعُوا

إِذَا الْكُمَاةُ تَحَامَوْا كَالْأَقْسَامِ
(حسّان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۳۴)

الخاقاني:

دیده نه ای روز بدر کآن شه دین بدر آور

راند سپه در سپه سوي نشیب و عقاب

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ ه. ش، ۱: ۶۷)

و بعض المضامين التي إنفرد بها بعضهما:

۳-۹) فی التحدّث عن أهل بيت الرسول (ص):

در عَلمَشْ میرِ نَحْلِ نیزه کشیده چو نخل

غرقه صد نیزه خون أهل طعان و ضراب

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ ه. ش، ۱: ۱۳۲)

۳-۱۰) فی التحدّث عن حجّ بيت الله الحرام و

الروضة النبوية المنورة:

عرشيان بانگ « والله على التّاس » زند

پاسخ از خلق؛ « سَمِعْنَا وَ اطَعْنَا » شنوند

(المصدر السابق، ۱: ۶۶)

به سلام آمدگان حريم مصطفوي

« اَدْخُلُوهَا بِسَلام » از حرم آوا شنوند

(المصدر السابق، ۱: ۲۱۰)

۳-۱۱) فی التحدّث عن الحقيقة احمديّة:

برنامه سپیده صبح ازل هنوز

کاو بر سیه سپید ازل بوده پیشوا

(المصدر السابق، ۱: ۲۱۲)

الّذي يشير إلى هذا الحديث؛ «كنت نبياً و آدم بين الماء و الطين» (بحار الأنوار، ج ۱۸ / ص ۲۷۸ / س ۱۳).

إذاً نستشف من خلال الآيات أن تأثر الخاقاني بسلفه حسّان بن ثابت، يبدو من باب «التناص» يعنى أنّه رغم ثقافته الواسعة و اطلاعه على شعر حسّان و آداب العرب، لم يقتبس عن حسّان اقتباساً من حيث المضمون و الأسلوب، بل جعله قدوة و دليلاً لشعره الذي يمتاز بالخلق و الإبداع.

خصائص أسلوبهما:

لقد كان حسّان من المجدّدين في شعره، و قد أتاحت له حياته الطويلة و معاصرتة لعصرين مختلفين كلّ الاختلاف، أن يكون مجدّداً في تفكيره و مناهج شعره، لأنّ الإسلام الّذي أدركه حسّان قد أثر في شعره، و هذا التأثير و إن لم يكن قوياً و فاعلاً من فعل روايب الجاهليّة مثل استهلال بعض مدائحه بالمقدمة الطلّية:

هَلْ رَسُمُ دَارِسَةِ الْمَقَامِ يَبَابِ

مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بِجَوَابِ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۶۴)

لكنّه يعدل بعض الأحيان عن هذه المقدمة في مدح التّبيّ (ص):

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ

مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلُوحُ وَ يُشْهَدُ

(حسّان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۲۳۴)

إنّه يمدح التّبيّ (ص) بأسلوب يختلف عن الأسلوب الّذي تعودّ عليه في الجاهليّة. على سبيل المثال؛ هو لا يشبه نبيّنا (ص) بالأسد كما فعل كعب بن زهير و لا يمعن في وصف جوده و سخائه كمن يريد الاستجداء و التّكسّب، بل يعنى بوصف شمائله الغرّ و يبيح في ذكر الرّسالة و

التصديق بها، و يذكر ما حمل الإسلام للعرب من نور و هداية و أمل بعد يأس و يعرض أحياناً بمن أنكر النبوة فيستفيد من أسلوب التهديد و الوعد فيها هو يخاطب أباسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب هكذا:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
و يَمْدَحْهُ وَ يَنْصُرْهُ سِوَاءِ
(المصدر السابق، ٦١)

فَإِنْ أَبِي وَ وَالِدُهُ وَعَرِضِي
لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءِ
(المصدر السابق، ٦٢)

لَوْلَا النَّبِيُّ وَ قَوْلُ الْحَقِّ مَعْصَبَةٌ
لَمَا تَرَكْتُ لَكُمْ أَنْثَى وَلَا ذَكَرًا
(المصدر السابق ٢٧٩)

يأتي حسن بن ثابت في مدح النبي (ص) بألفاظ جديدة لم يسبق لها مثيل في قاموس المدح العربي. ألفاظ مثل: جبرئيل و رسول الله و روح القدس و أمين الله و أمرالله و التقوى و العبادة و ... ألفاظه دائماً تأتي متآخية مع معانيه و تتلائم مع أفكاره و تدخل القلوب دون أن تكدر فكراً أو تثقل على السمع، وفيها أثر من الدين الجديد. فنجد ألفاظه رقيقة، عاذية، لينة مع السلاسة و الطلاوة دون التكلف و التأنق كما نلاحظ فيها موسيقى القوة و الدعوة ذات جلجلة تتناسب مع جلجلة صدر الإسلام.

فقد غلب على أسلوبه، طابع الارتجال و تخلو قصائده المدحية من الوثبات الخيالية، و الأفكار مثبتة في شيء من الوضوح و التظلم كما أنها حقائق أفرغت في قالب من التقرير و الخبر، لا أعمال فيها لصور الخيال من التشبيهات المركبة أو الاستعارات التمثيلية، مستعملاً أسلوباً إنشائياً أو خبرياً :

أَلَا أَخْبِرُ أَبَاسُفِيَانَ عَنِّي
فَأَنْتَ مُجْـوْفٌ نَحْبُ هَوَاءِ
(المصدر السابق، ٦٠)

بَيُّ أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَ فِتْرَةٍ
مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَوْتَانِ فِي الْأَرْضِ تُعْبِدُ
(المصدر السابق، ١٣١)

و بما أن حسن كان ابن البيئة الإسلامية الجديدة، و يعد من الشعراء الذين عاصروا الدعوة الإسلامية، فقد تأثر في مدائحه تأثراً كبيراً بالآيات القرآنية مقتبساً منها معاني جديدة؛
فَازْهَبْ خُبَيْبُ جَزَاكَ اللَّهُ طَيِّبَةً

وَ جَنَّةَ الْخُلْدِ عِنْدَ الْخُورِ فِي الرُّفْقِ
(المصدر السابق، ٣٤٣)

فقد أخذ معنى قوله من الآية المباركة: «وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (الواقعه « ٥٦ » ٢٢ / ٢٤).

و في قوله:
مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأُولَى سَلَفُوا
وَ أَبْذَلَ النَّاسَ لِلْمَعْرُوفِ لِلْحَادَى
(المصدر السابق، ١٥٣)

فقد أخذ معناه من الآية المباركة التالية:
« مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ »
(البقرة « ٢ » / ٩٧)

المدائح النبوية مبثوثة في جميع قصائده الإسلامية، و إن استقلت في بعض الأحيان، إلا أنها جاءت منتشرة في الهجاء والرثاء. علي سبيل المثال عندما يرثي النبي(ص) في القصيدة التي مطلعها:
مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا
كُحِلَتْ مَاقِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ
(المصدر السابق، ١٥٠)

بمدحه بقوله:

نُوراً أضاءَ على البريةِ كُلِّها

مَنْ يُهْدِ لِلنُّورِ الْمُبَارَكِ يَهْتَدِ

(المصدر السابق، ۱۵۱)

من جانب آخر، كثيراً ما يفتخر بنفسه و بقومه إذ كان شاعر الرسول و لسان دعوته كما كان قومه يدافعون عن الدين الجديد و الرسول الأكرم؛

لِسَانِي صَارُمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ

وَ بَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ

(المصدر السابق، ۶۳)

فَقُمْنَا بِأَسْيَافِنَا دُونَهُ

نُجَالِدُ عَنْهُ بُعَاةَ الْأُمَمِ

(المصدر السابق، ۴۲۸)

و هذا هو حسن و أسلوبه الذي سيطر عليه الإرتجال، الأسلوب الذي لا يخلو من القوة و الاندفاع العاطفي العنيف الصادق، و لا يخرج عن آثار الدين الجديد و القرآن الكريم، كما كان شعره مصدراً من مصادر تاريخ تلك الأيام و فاتحة للشعر السياسي الذي ازدهر في عهد بني أمية.

أما الخاقاني فيستهل قصائده بالتحدث عن التوحيد أو الموعظة أو وصف الكعبة العلياء أو التحذير من هوى النفس و أحياناً بوصف الصبح الملمع أو ومضات من التزعة الصوفية، دون أن يصل فيها إلى ذروة الحكيم، السنائي الغزنوي أو ناصرخسرو (۳۹۴-۴۸۱ ق.هـ) (خاقاني شرواني، ۱۳۵۷ ه.ش، ص الثلاثون)، لكنه يطلعنا فيها على نزعة الصوفية و قدرته على خلق أجواء خاصة، تتسم بألوان التصوف و الزهد. منها هذا البيت في مطلع قصيدة مدح فيها نبينا الكريم؛

طفلي هنوز بسته گهواره فنا

مرد، آن زمان شوي که شوي از همه جدا

(خاقاني شرواني، ۱۳۷۵ ه.ش، ۱: ۲۸)

و إذا كان ابن الرومي ضئيلاً بالمعاني، حريضاً عليها، يأخذ بالمعنى الواحد و يولده، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن، و يصرفه في كل وجه و إلى كل ناحية حتي يميتة و تعلم أنه لا مطعم فيه لأحد، (ابن رشيق القيرواني، ۱۹۹۸ م، ۲: ۲۳۸) فذلك شأن الخاقاني في المدائح النبوية. ألتست ترى كيف يصور حضة من التراب الذي أتى به من تربة الرسول (ص) في قصيدة يصل عدد أبياتها إلى ثمانية و ثمانين بيتاً (أنظر: زيني وند، ۱۳۸۳: ۱۴۴).

مطلعها هي:

صُبح وارم؛ کآفتابی در نمان آوردهام

آفتابم؛ کر دم عیسی، نشان آوردهام

(خاقاني شرواني، ۱۳۷۵ ه.ش، ۲: ۲۳۸)

و هذا ما جعل أسلوبه قريباً إلى التثر بسبب طول القصائد التي قد تصل أحياناً إلى مائة بيت. و بعبارة أخرى كثرة احتفال الشاعر بالتحليل و التفسير؛ دليل على افتقاد شعره الشيء الكثير من الخيال الشعري و بلاغة المعنى الموجز و رونقه.

و قد تأتي أحياناً في مدائحه النبوية، ألفاظ في غاية الغرابة و التكلّف إلا أنه يستخدم اللغة استخدام المعمار موادّه الإنشائية في بناية، و يتأق في صوغ الألفاظ تأق الرسام في الأشكال و الألوان. ألفاظه معبرة عن المعنى تمام التعبير، كما تتسم تراكيبه بمتانة التركيب و بلاغة الأداء، لكنها لا تخلو من بعض الغموض و التكلّف. منها هذا البيت الذي تطرق فيه الى معراج النبي (ص) و دنوه من الخالق فكان قاب قوسين أو أدنى:

اي پنج نوبه کوفته دردارِ مُلک لا

لا در چهاربالش وحدت کشد تو را

(المصدر السابق، ۱: ۱۱)

ينج نوبه كوفتن: كناية عن إعلان الحكومة و هذا صار معهوداً من زمن السلاجقة حيث كانوا ينقرون الأبواق في خمس مرّات و اقتبسها الشاعر لمفهوم إقامة الصلاة. دار ملك لا: دار حكومة لاله الاالله. چهار بالش وحدت؛ المسند و المعول لوحداية الله تعالى. و في كلّ هذه المنعطفات يريد أن يمدح النبيّ بقربه إلى الله و إعلانه النبوة و إقامة الصلاة لكنّه سلك مسلك الغموض. و ربّ معنى جميل أفسده لفظ غريب. أمّا الإقتباس من القرآن الكريم فهني ظاهرة فنيّة كثر استعمالها في شعر الخاقاني ولا نجد قصيدة من قصائده النبويّة إلّا و وسّمها بآيات من القرآن الكريم أو الأحاديث النبويّة. على سبيل المثال قد اقتبس في إحدى قصائده سبعاً و عشرين آية من آيات القرآن المجيد، منها هذا البيت؛

با «نفسِ مطمئنّه» قرينش كن آنچنان

كآواز «إرجعي» دهدش هاتف رضا
(المصدر السابق، ١: ١٦)

الذي يشير فيه إلى هاتين الآيتين من سورة «الفجر»؛
«يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً»
(الفجر «٨٩» ٢٧/ - ٢٨).

فضلاً عن هذا، إنّ الملاحظ في بعض مدائحه مثل قصيدة «منطق الطير»، يجد فيها نوعاً من الأسلوب القصصي الذي لم يسبق له في المدائح النبوية عند الشعراء الآخرين، حيث يحكي عن سرب من الطيور التي تريد أن تختار وردة جميلة في الطبيعة، فلأجل هذا تنتشر في أرجاء الأرض و تشمّ كلّ الورود، و لكنّها لا تتفق في آرائها على واحدة، فترجع الحكم إلى «العنقاء» التي تختار الوردة المحمدية، و منها هذا البيت على لسان «العنقاء»؛

گرچه همه دلکشند، از همه گل نغزتر

كو عرق مصطفاست؛ وين دگران خاك و آب

(المصدر السابق، ١: ٦٦)

الظاهرة الأخرى التي تشاهد في مدائحه النبوية هي الاستفادة من الثقافة المسيحية، لأنّ أمّه كانت مسيحية قبل إيمانها بالإسلام، منها هذا البيت؛

مریم گشاده روزه و عیسی بیسته نطق

كاو در سخن گشاده و سر سفره سخا

(المصدر السابق ١: ١٤)

و من يطالع الشعر الكلاسيكي عند العرب و الفرس يدرك أن البحور المستعملة بكثرة هي: الطويل، والكمال، والوافر، والبسيط، و قد استفاد كلا الشاعرين من هذه البحور في أشعارهما، و القارئ لقصائدهما يدرك أنّهما قد لائما بين موضوعات الشعر وأوزان البحور. على سبيل المثال إنّهما يستعملان الطويل و البسيط في المناسبات التي تتطلب قوة أو وصفاً في مدح النبي (ص). وقد تأتي أحياناً في المدائح النبوية للخاقاني - القوافي العصية و الأردفة الصعبة، خلافاً لما نجده عند حسن - فمثلاً يستعمل شاعرنا كلمة «آمده» في ثلاثمائة مرة كالرديف في قصيدة «تحفة الحرمين».

و الخلاصة هي أنّ أسلوب الخاقاني في المدائح النبوية يعدّ أسلوباً سهلاً و ممتنعاً؛ ليأتى بألفاظه بين الوضوح و الغموض، فلها جرس موسيقي منقطع النظير، كما يستفيد من الصور و الأخيلة التي تكون أحسن و أروع من تلك التصاویر التي إستعملها حسن بسبب العناصر التي اقتضتها تغييرات الزمان و المكان.

٥- النتائج

٥-١ السمات المشتركة:

٥-١-١ لا تخلو مدائحهما من وحدة الموضوع كعنصر أساسي في تكوين أجزاء القصيدة.

٥-٢-٣) إِنَّ الخاقاني يصب جلّ اهتمامه على الألفاظ والمعاني أكثر من حسن.

٥-٢-٤) إِنَّ الخاقاني يعنى عناية فائقة بعنصر الموسيقى الشعرية بما يستعمله من الألفاظ والتراكيب والأوزان والقوافي المناسبة.

٥-٢-٥) إِنَّ الخاقاني يستعمل الأسلوب القصصى في بعض مدائحه مع أنّ هذه الظاهرة لا توجد في شعر حسن إلا في قصيدة واحدة وهو يسرد فيها قضية «غدير خم».

٥-٢-٦) المدائح النبوية تعكس لدى حسن قدرته على الإرتجال، أما عند الخاقاني فهي تشهد على طول باع الشاعر وقدرته على قرض الشعر بحيث يتبادر إلى الأذهان أنّه شاعر من شعراء الحواريات.

٥-٢-٧) إِنَّ حسن خالف أحياناً عمود الشعر أو نهج القصيدة فهو مثلاً لا يبدأ قصائده بالوقوف على الأطلال و الدمن، بل يستهلّها بتعريف الدين الجديد و رسوله، أمّا الخاقاني فلم يخالف في كثير من الأحيان عمود الشعر، حيث يستهلّ قصائده بالتوحيد والحكمة أو الوصف كما كان مشهوراً عند بقية الشعراء الملتزمين.

٥-٢-٨) إِنَّ معاني المدح عند حسن جاهلية و إسلامية، أما مجمل معاني المدح عند الخاقاني فهي إسلامية بسبب اختلاف البيئة والثقافة.

٥-٢-٩) إِنَّ الخاقاني أكثر استعمالاً للألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة بالنسبة إلى حسن.

المراجع

المراجع العربية:

- [١] ابن رشيق القيرواني، أبوعلی الحسن (١٩٩٨م)؛ العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده، تحقيق؛ محمد قرقزان، الطبعة الأولى، بيروت، دارالمعرفة.

٥-١-٢) كلاهما حريص على الإقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

٥-١-٣) إنهما يمدحان النبي (ص) مدحاً صادقاً و بما هو أهله، دون أي تكسّب أو استجداء.

٥-١-٤) لا تخلو مدائحهما من بعض المضامين والأساليب المشتركة وأحياناً المتباينة.

٥-١-٥) كلاهما يتبعان أسلوب الشعراء السالفين، لكنهما يعدّان من الشعراء المجدّدين في هذا الفن، كما أنّهما يعدّان من الشعراء المؤثرين في غيرهما. على سبيل التذكير، قد تأثر بأشعار حسن أمثال «الكميت بن زيد الاسدي» و «الفرزدق» و «البوصيري» و «أحمد شوقي» والآخرون. كما أنّ «جمال الدين عبدالرزاق الاصفهاني» (٥٨٨ هـ.ق) و «سعدي الشيرازي» (٦٠٦-٦٩٠ هـ.ق) قد تأثرا بأسلوب الخاقاني.

٥-١-٦) كثيراً ما يستعملان في مدائحهما عنصر «المفاخرة» بأشكالها المختلفة؛ الفردية، أو القومية أو الدينية.

٥-١-٧) إنّ المدائح النبوية عند حسن و الخاقاني تعدّ مصدرّاً من مصادر تاريخ تلك الأيام، كما أنّها تكشف عن جماليات هذا الفن و عن عواطفهما الصادقة العميقة.

٥-٢) السمات المتباينة:

٥-٢-١) إنّ المدائح النبوية للخاقاني أكثر طولاً و استقلالاً من شعر حسن كما أنّها أكثر اختراعاً و تفسيراً للمعاني و أبعد نظراً و دقة في وصف دقائق الأشياء.

٥-٢-٢) إنّ حسن أكثر استعمالاً عناصر التهديد و الوعيد و الحماسة بالنسبة إلى الخاقاني، بسبب اختلاف البيئة.

- [٢] ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٨م)؛ لسان العرب، تحقيق؛ على سيري. الطبعة الأولى، بيروت، داراحياء التراث الإسلامي.
- [٣] ابو حاققة، أحمد (١٩٧٩ م)؛ الإلتزام في الشعر العربي، الطبعة الاولى، بيروت، دارالعلم .
- [٤] الأصفهاني، أبو الفرج (١٩٨٣ م)؛ الأغاني، بيروت، داراحياء التراث العربى .
- [٥] حسن بن ثابت الأنصاري (١٩٩٠م)؛ شرح؛ عبدالرحمن البرقوقي، دارالكتاب اللبناني .
- [٦] البستاني، بطرس (١٩٨٩م)؛ أدباء العرب في الجاهلية و صدر الاسلام، بيروت، دارنظير عبود.
- [٧] التبريزي، الخطيب (١٩٧١م)؛ شرح قصيدة كعب بن زهير في النبي (ص)، تحقيق؛ ف، كرنكو. بيروت، دارالكتب الجديدة.
- [٨] پاشا، عمر موسى (١٩٩٩م) تاريخ الأدب العربى في العصر المملوكى، الطبعة الأولى، دمشق، دارالفكر.
- [٩] الجمحي، محمد بن سلام (بدون تاريخ)؛ طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمدشاکر. دارالمدنى بجدّة.
- [١٠] الحسينى، سيد جعفر (١٤١٦ هـ . ق)؛ تاريخ الأدب العربى (أدب صدر الإسلام)، الطبعة الأولى، قم، دارالإعتصام .
- [١١] ريداوي، محمود (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م)؛ ابن حجة الحموى؛ شاعراً وناقدًا، دارقتيبة .
- [١٢] زيني وند، تورج (١٣٨٣ هـ . ش)؛ مقارنة بين ابن الرومى و الخاقانى الشروانى في تفسير المعاني و استقصائها، خلاصه مقالات اولين همایش بین المللی نقش زبان در گفت وگوي تمدنها، دانشگاه اصفهان .
- [١٣] الشايب، أحمد (١٩٧٦ م)؛ تاريخ الشعر السياسى، بيروت، دارالقلم .
- [١٤] شرف الدين، خليل (١٩٩٧م) الموسوعة الأدبية الميسرة، الطبعة الأولى ،بيروت، دارومكتبة الهلال،
- [١٥] ضيف، شوقي، (بدون تاريخ)؛ الفن ومذاهبه في الشعر العربى، الطبعة الثامنة، مصر، دارالمعارف.
- [١٦] ——— (١٩٦٣ م)؛ تاريخ الأدب العربى (العصر الإسلامى)، الطبعة السابعة، القاهرة، دارالمعارف،
- [١٧] ——— (١٩٧١ م)؛ فصول في الشعر و نقده، الطبعة الأولى، القاهرة، دارالمعارف .
- [١٨] عبدالنور، جبور (١٩٧٩ م)؛ المعجم الأدبي، الطبعة الأولى، بيروت، دارالعلم للملايين .
- [١٩] عيسى، يوسف (١٩٩٠م)؛ حسن بن ثابت الأنصاري، حياته و شعره، الطبعة الأولى، بيروت، دارالكتب العلمية .
- [٢٠] الفاخوري. حنا (١٣٨١ هـ . ش)؛ تاريخ الأدب العربى، الطبعة الثانية، طهران، طوس .
- [٢١] مبارك، زكي (١٩٧٦ م)؛ المذائج النبوية، الطبعة الثانية، بيروت، دارالعلم للملايين .
- [٢٢] مفيد، محمد بن محمد (بدون تاريخ)؛ الإرشاد في معرفة حجج الله علي العباد، طهران، دارالكتب الإسلامية.
- [٢٣] نورالدين، حسن (٢٠٠٠م)، موسوعة أمراء الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، الطبعة الأولى، بيروت، شركة رشاد برس .

المراجع الفارسیّة:

[۳۲] کزازی، میر جلال الدین (۱۳۷۲ هـ. ش.)

رخسار صبح، چاپ دوم، تهران، ماد.

[۳۳] کندلی هریسچی، غفار (۱۳۷۴ هـ. ش.)؛

خاقانی شروانی، حیات، زمان و محیط او،

ترجمه؛ میر هدایت حصاری، چاپ اول، تهران، مرکز

نشر دانشگاهی.

[۳۴] ماهیار، عباس (۱۳۷۳ هـ. ش.)؛ گزیده

اشعار خاقانی، چاپ دوم، تهران، قطره، ۱۳۷۳

ه. ش.

[۳۵] معدن کن، معصومه. نگاهی به دنیای خاقانی،

چاپ دوم، تهران، مرکز نشر دانشگاهی.

[۳۶] وزین پور، نادر (۱۳۷۴ هـ. ش.)؛ مدح، داغ‌نگ

بر سیمای ادب فارسی، چاپ اول، تهران، معین.

المواقع الإلكترونية

[۳۷] أبو الخير، محمود عبدالله. مقدمة القصيدة الجاهليّة

عند حسن بن ثابت الأنصاري.

[38] www.upu.edu.sa/majalt/shariramag/magzi/mG-016.hotm. 2002/10/13

[۳۹] شمسی‌باشا، محمد عبدالرحمن. حسن بن

ثابت شاعر الرسول.

[40] www.Khayma.com/mchamsipasha/Hassan.htm. 2002/10/13

[۲۴] خاقانی شروانی (۱۳۷۵ هـ. ش.)؛ دیوان خاقانی،

تصحیح؛ میر جلال الدین کزازی، چاپ اول، تهران،

ماد.

[۲۵] ———، (۱۳۳۳ هـ. ش.)؛ مثنوی تحفة

العراقین، تصحیح؛ یحیی قریب، چاپ اول، تهران،

شرکت سهامی کتابهای جیبی.

[۲۶] دشتی، علی (۱۳۶۴ هـ. ش.)؛

خاقانی شاعر دیر آشنا، چاپ چهارم، تهران،

اساطیر.

[۲۷] رزنجو، حسین (۱۳۶۹ هـ. ش.)؛ شعر کهن

فارسی در ترازوی نقد اخلاق اسلامی، چاپ

سوم، مشهد، آستان قدس رضوی.

[۲۸] زرین کوب، عبدالحسین (۱۳۷۸ هـ. ش.)؛ دیدار

با کعبه جان، چاپ اول، تهران، سخن.

[۲۹] زین‌وند، تورج (۱۳۸۱ هـ. ش.)؛ مقایسه‌ی

بین ابی‌طیب‌المتنبی و خاقانی شروانی در شعر

فخر، رساله کارشناسی ارشد، تهران، دانشگاه تربیت

مدرس.

[۳۰] صفا، ذبیح‌الله (۱۳۷۳ هـ. ش.)، تاریخ ادبیات در

ایران، چاپ سیزدهم، تهران، فردوس.

[۳۱] فروزانفر، بدیع‌الزمان (۱۳۶۹ هـ. ش.)؛ سخن

و سخنوران. چاپ چهارم، تهران، خوارزمی.

مقایسه بین حسن بن ثابت الانصاری و خاقانی شروانی در مدایح نبوی

تورج زینی‌وند^۱

تاریخ دریافت: ۱۳۸۶/۶/۳

تاریخ پذیرش: ۱۳۸۶/۹/۲۴

با دمیدن خورشید اسلام و آغاز ایمان توده های مردم به این دین، و نیز بدلیل گرایش مردم به آموزه های قرآنی، شعر عربی به تدریج به سستی گرایید. سپس، رخدادهایی در آن زمان به وجود آمد که برخی از شاعران گمراه، تیرهای سخن خویش را روانه پیامبر (ص) و اصحابش نمودند و دیری نپایید که شاعران مسلمان نیز در برابر آن گمراهان، ایستادگی نموده و شعرهای فراوانی را در هجو آنان و در دفاع از پیامبر (ص) و اسلام، سرودند.

و چون پیامبر رحلت نمود و به ملکوت اعلی پیوست، پرتوهای این شعر خاموش نشد بلکه هماره بر زبان شاعران متعهد، جاری بوده تا اینکه با گذر زمان، رشد کرده و با عنوان «مدایح نبوی» شناخته شد. این پژوهش، به بررسی مضمون و ساختار مدایح نبوی در شعر حسن بن ثابت (شاعر پیامبر (ص)) و خاقانی شروانی (حسام العجم) از شاعران بزرگ ادب تازی و پارسی، می‌پردازد.

واژگان کلیدی: مدایح نبوی، حسن بن ثابت الانصاری، خاقانی شروانی

۱. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی کرمانشاه